ميشال عاصي
مثقف عصامي من ذلك الزمان..

رحل ميشال عاصي قبل أوان الرحيل. وكان ميشال، قبل أن تنطفئ آخر شعلة من نور حياته الدافق، قد أخبرنا، بدمٍ بارد، وهو يبتسم كعادته، أنّه يعد الأيام الباقيات من عمره، بعد أن أيقن أنّه مغادر هذه الحياة في مدة زمنية محدّدة. وأخبرنا، في الوقت ذاته، أنّه عاكف على إنجاز مذكّراته، قبل أن يأتي ذلك اليوم الصعب، عليه وعلينا.

كان هو وحده الذي يعرف، ربما أكثر من الأطبّاء الذين حملوا إليه النذير، ومن بينهم ابنه نجيب، الطبيب البارع والشجاع والشهم، أنّ للحياة قوانينها التي تقهر الإنسان، ويعجز هو عن التحكُّم بها، عندما يحين أوان فعلها، حتى ولو امتلك أكبر القدرات، وأعظمها. ولذلك تعامل مع هذا الواقع المرير بشجاعة الرجال، وبمرونة تميَّز بها بكل نشاطه الإنساني المتنوّع، المتعدد، ولكنه لم يستطع أن يتغلّب على حزنٍ عميق لا حدود له، رغم كل ما امتلكه من شجاعة ومرونة وواقعية، ومن تفاؤل..

وحين نتذكّر ميشال عاصي اليوم فإنّنا نتابع، بذلك، استحضار صوته، واستحضار شخصيته، واستحضار كل ما ارتبط بحياته، منذ نشأته الأولى، حتى وفاته، من نشاط، في مجالات العمل الاجتماعي، وفي الحياة الأدبية والثقافية، وفي الجامعة اللبنانية، كطالب فيها، أولاً، منذ العام الأول لتأسيسها، ثم كأستاذ في كلياتها، ثم كرئيس لهذه الجامعة التي كان هو، وجيل من مثقفي تلك المرحلة، من أولى نتاجاتها القيّمة.

لم يأتِ ميشال إلى الجامعة، وإلى الحياة الثقافية، بالتسلسل الطبيعي، مثل سواه. بل هو جاء، بطريقة مختلفة. جاء بعصامية ندر مثيلها. وحقّق لنفسه طموحاً صنعه بقدراته الذاتية، وبجهد استثنائي، وبتعب، وبشقاء. وظلَّ، هكذا، كادحاً طيلة حياته. ولذلك تميَّز، مع واقعيته ومرونته في التعامل مع الناس، والأحداث، والمهمات التي أوكلت إليه، بكبرياء. وحافظ على موقعه الفكري، حتى في أشد لحظات المحنة صعوبة وتعقيداً. وهو ما أهّله، في فترة رئاسته للجامعة اللبنانية، لأن يكون على علاقة مع جميع القوى. برغم كل ما بينها من تناقض وصراع. فحافظ، قدر المستطاع، على الجامعة، واحتفظ لنفسه بموقع في الحياة الثقافية والتربوية والجامعية، هو الموقع الذي سيظل يذكره اللبنانيون، من خلاله، وستذكره، بالأخص، أجيال الطلاب في تلك المرحلة الدقيقة من تاريخ هذا الصرح التربوي والثقافي الكبير، الجامعة اللبنانية.

كثير من الكلام يمكن أن يقال عن ميشال عاصي، لا سيما من أولئك الذين عرفوه، منذ وقت مبكر، وأنا منهم. إذْ تربطني بميشال صداقة تعود إلى العام ١٩٥٢، عندما انتسبت إلى الجامعة، وكانت في عامها الثاني. وكان هو قد انتسب إليها في السنة الأولى من تأسيسها. وظلّت تربطنا هذه الصداقة العميقة، الفكرية والسياسية والثقافية والشخصية، حتى لحظة وفاته. وما أكثر الذكريات. وما أكثر الأحداث التي شاركنا فيها كلانا خلال الأعوام الأربعين من صداقتنا هذه. من مواقعنا المختلفة.

ميشال عاصي سيبقى، مع الكثيرين من أمثاله، حياً في وجدان أصدقائه وعارفيه، وفي وجدان الوطن.